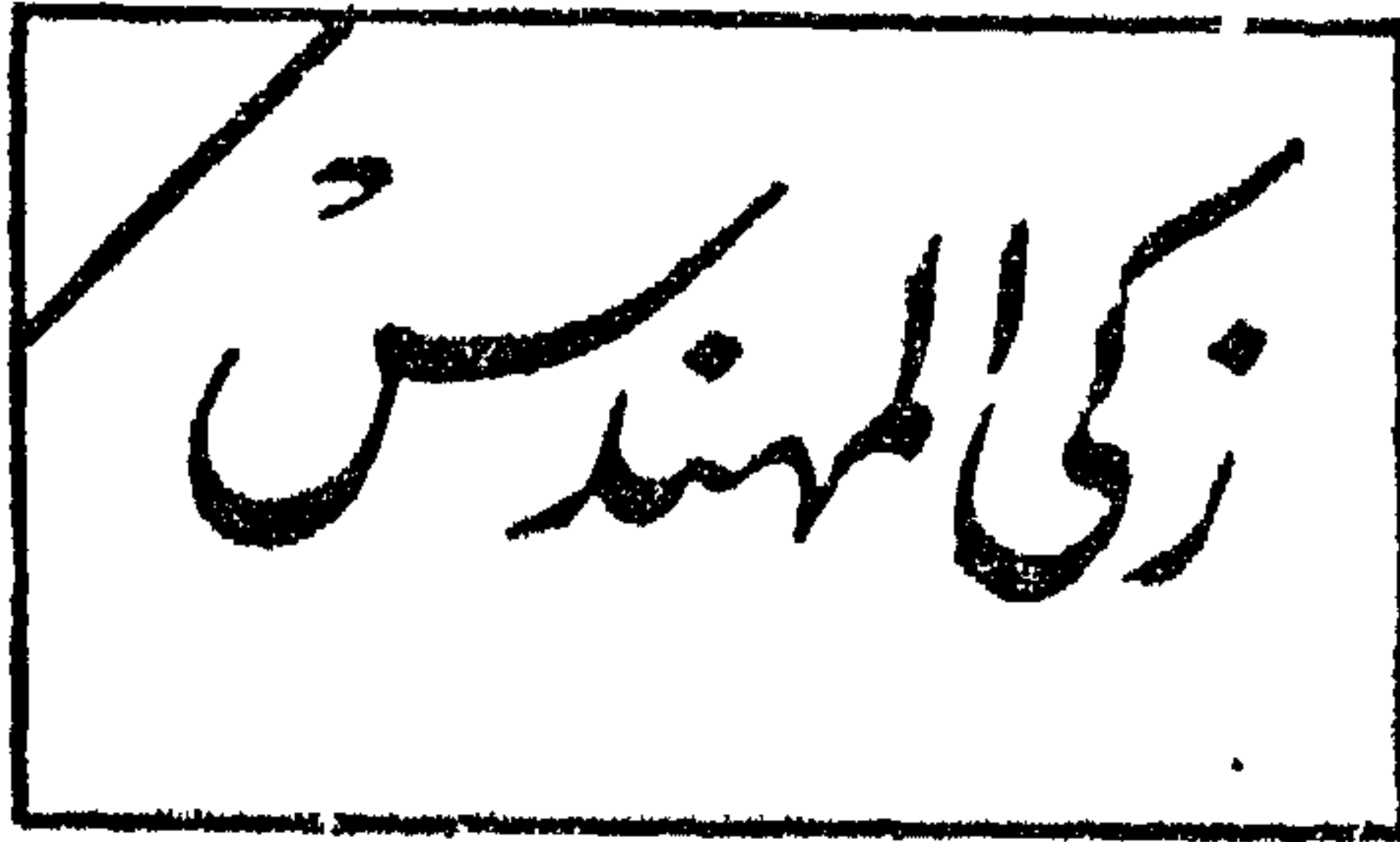


شخصيات مجعية

في الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ١٨ من ذى القعدة
سنة ١٣٩٦ هـ الموافق ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٧٦ م أقام
المجمع بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء
والتشريع حفل تأبين المرحوم الأستاذ زكى المهندس نائب
رئيس المجمع الراحل ، وفيما يلي ما القى من كلمات في
هذا الحفل :

كلمة الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع



في تأبين المرحوم الأستاذ :

وأبى هؤلاء العشرة إلا أن أكون المتحدث
باسمهم في حفل استقبالهم وإن كنت أصغرهم
أو لأنى كنت أصغرهم ، فتحدثت
في الأمس البعيد باسم زكى المهندس يوم
أن دخل المجمع وشاء القدر أن أتحدث عنه
الليلة يوم أن رحل ، وما أعظم الفقد ،
وما أقسى الحديث ! ويزيده قسوة أن زكى
المهندس كان أوثق الزملاء صلة بي ، وأطولهم
صحبة لى ، وأقربهم إلى قلبي . قضيت معه

زكى المهندس بين الجمعيين

سيداتي ، سادتي :

يعز عليّ حقاً أن أقف الليلة بينكم مؤبناً «زكى
المهندس» ، فقد كنت معه بين عشرة من
الحالدين ، دخلوا المجمع سوياً عام ٤٦ ،
ثم رحلوا عنه الواحد تلو الآخر ، ولم يبق
لى منهم سواه ، وما هو ذا قد جاء دوره ،
فلم يتخلف ، وتركنى وحدى ، « وإنا لله ،
وإنا إليه راجعون » .

ثلاثين عاماً كاملة في هذا المجمع ، نعمت فيها بزمانة كريمة ، كلها ود وإخلاص ، ورقة وعذوبة ، وسماحة ، وبشاشة لا مطمع فيها ولا مغنم ، ولا تنافس ولا تراحم ، فلم نختلف يوماً ما ، ولم تباعد بيننا الأحداث والتقلبات . وإن بدا شيء من التباين بين أبناء الأسرة الواحدة ، كان زكى المهندس همزة الوصل ، ونقطة الالتقاء ، ومبعث الرضى . اختلفنا مرة فيمن يكون نائب رئيس المجمع ، ويوم أن ذكرت اسمه زال الخلاف ، واتفق الجميع .

ويطول بي الحديث إن شئت أن أعرض لزكى المهندس المجمعى ، فقد كان مؤمناً بالإيمان كله بأن العربية لغة علم وحضارة ، وأنها حية ومتطورة . وفي وسعها أن تسد حاجات العصر ومتطلباته ، وعلينا أن نيسرها في مفرداتها وتراكيبها ، في نطقها وكتابتها ، وأن نتوسع في ألفاظها وأصايلها . وأشهد أنه من أنصار التيسير والتجديد ، لأنه كان يرى أن اللغة تعبر عن الحياة ، والحياة في تطور مستمر . والعربية لغة طيعة مرنة ، قد اتسعت — وما زالت تتسع — لكل جديد ، وتصلح للتعبير عن كل مستحدث ، وحركة التطور مطردة ماضية متصلة ، تجرى إلى غاياتها في سرعة وقوة .

وكان مؤمناً أيضاً برسالة المجمع ، حريصاً على أدائها ، فأعطاه في سناء ، ووقف عليه جل جهوده في سنين طوال « مرحلة النضج ، الخبرة التامة » ، مرحلة الشيخوخة الحكيمة

المتزنة ، أعطاه علماً وعملاً ، توجيهاً ورأياً ، إشرافاً وإدارة . أسهم في معظم لجانه ، وأولع بمجلسه ومؤتمره ، ونذر أن تخلف عن جلسة من جلسات اللجان أو المجلس أو المؤتمر ، ولم تنقطع صلته قط باللجنة الإدارية التي ترعى نشاط المجمع وسير العمل فيه ، وأشرف عدة سنوات على مجلة المجمع ، فجدد نشاطها ، ونوع غذاءها ، وحرص على أن تصدر في موابقتها ، واختير نائباً لرئيس المجمع عام ٦٤ ، وجدد انتخابه بعد ذلك ثلاث مرات . ووقف إلى جانب المرحوم طه حسين رئيس المجمع في سنى مرضه موقف الولاء والإخلاص . وألححت عليه بعد وفاته أن يقبل الترشيح لرياسة المجمع ، فاستغنى ، وأبى إلا أن يلتقى العبد عن كاهله ، وأشهد أنه لم يضمن على رأى أو مشورة ، ولم يقصر في عون أو مساندة .

* * *

هذا هو زكى المهندس الزميل والرئيس ، المشرف والإدارى ، أما زكى المهندس العالم والدارس ، فالحديث فيه طويل ، وأكتفى بأن أشير إلى موقفه من ثلاث لجان من لجان المجمع كانت أثيرة لديه ، ارتبطت باسمه ، وحببت إليه ، وما أقساها من لجان ، وأعنى بها لجان : اللهجات ، وتيسير الكتابة ، والأصول .

ودراسة اللهجات ليست من الأمور الهينة،
فهى علم حديث النشأة يرجع إلى النصف
الآخر من القرن الماضى ، ويتطلب ضرباً
من الانتجاع والرحلة ، ولا بد له أن يستعين
ببعض الأجهزة والآلات ولم تعن به بعد
الجامعات العربية العناية الكافية ، ومن حقنا
أن نعوّل عليها أولاً كى تمتد اللغويين
والمجمعيين بمادة يمكن أن يستخلصوا منها
ما يستخلصون . وفى العربية لهجات قديمة
وحديثة جدرة بالدرس والبحث ، وقد
بذر البذرة الأولى لدراستها فى مجتمعنا بعض
زملائنا الأول . عرب ومستعمرين ، ومنهم
من كان يعد بين علماء اللهجات .

وأذكر أن الجارم حاول أن يدرس لهجة
رشيد مسقط رأسه ، كما أخذ العقاد نفسه
بدراسة لهجة أسوان ، ولفريد أبو حديد
دراسة مفصلة فى اللهجة القاهرية . وحاول
زكى المهندس أن يتابع هذا النشاط ، وأن
يغذيه وينميه . فاتجه أولاً إلى الجامعات
ومعاهد الصوتيات ، لى تعنى بدراسة
اللهجات المعاصرة دراسة حقيقية ، ولكننا
لم نحظ منها حتى الآن برد يعول عليه . ولجأ
ثانياً إلى كتب الأدب واللغة آملاً أن يكشف
فيها عن بعض اللهجات القديمة ، كعنينة
تميم وقضاة . وكشكشة أسد وربيعة . وبقى
حريصاً على أن يكون للهجات درس وبحث
فى المجتمع ... برغم ما صادفها من صعب ،
وما أحوجنا فى هذا المضمار إلى دراسات

ميدانية وبحوث متخصصة تواجه لهجات
العالم العربى فى مختلف أرجائه .

واستوقفت مشكلة الكتابة العربية المجمع
فى انعقاده الأول ، وأخذ يعالجها علاجاً
متصلاً منذ سنة ١٩٣٨ ، ووقف عليها دورة
كاملة عام ١٩٤٤ لمناقشة مشروع الحروف
اللاتينية الذى تقدم به عبد العزيز فهمى .
وأعلن المجمع بعد ذلك بقليل عن جائزة
محترمة فى مسابقة لتقديم أحسن اقتراح لتيسير
الكتابة العربية ، وما إن أعلن عن هذه
المسابقة حتى استجاب لها كثيرون ، وأربت
المقترحات التى قدمت للمجمع على المائتين .
وقدر لى أن أشارك مع زكى المهندس فى
فحص هذه المقترحات ، ولم يكن من بينها
مع الأسف ما يحقق التيسير المنشود ، واتصل
عملى مع الفقيه الكريم فى لجنة تيسير الكتابة
العربية بانتظام .

والمشكلة فى حقيقتها مزدوجة ، هى مشكلة
قراءة وكتابة معاً ، وليس من اليسير أن
يقدم لها حل يعالج الجانبين معاً . واتجهت
اللجنة خاصة إلى معالجة مشكلة القراءة ،
فأوصت بالتزام الشكل الكامل فى كتب
المرحلة الابتدائية ، وبشكل أواخر الكلم
فى كتب المرحلة الإعدادية ، وبشكل ما
يتوقع خطأ التلميذ فيه فى كتب المرحلة
الثانوية ، ورحبت وزارة التربية والتعليم بذلك .
وفى هذا ما ينشئ التلميذ على القراءة الصحيحة
والنطق السليم . ودرست اللجنة فى تفصيل
صور الحروف والهمزات وعلامات الترقيم

في صندوق الطباعة العربية ، ورأت الاكتفاء بصورة واحدة للحرف الواحد كيفما كان موضعه في الكلمة ، وخففت صور الهمزة وعلامات الترقيم : فهبطت بصندوق الطباعة العربية إلى ١٣٥ صورة ، واقترب كل القرب من صندوق الطباعة اللاتينية الذي تبلغ صورته ١١٥ .

ووضعت لذلك نموذجاً صادف نجاحاً ملحوظاً ، وأخذ به كثير من دور النشر وسبك الحروف . وكم كان زكى المهندس ، وهو أستاذ خط بقدر ما هو أستاذ أدب ولغة ، عوناً للجنة فيما انتهت إليه من صور وأشكال . ولا شك في أنا نقرأ اليوم أكثر مما نكتب ، ولا تزال مشكلة الكتابة في حاجة إلى معالجة وتيسير ، وليتناقنع بخط الرقعة كتابة ، ونعرف كيف نمكن أبنائنا من تجويده .

وأما لجنة الأصول فهي لجنة التجديد والتطوير ، لجنة التشريع اللغوي إن صح هذا التعبير ، وواجب المشرع أن يلحظ الظروف والملابسات ، وأن يسعى جاهداً إلى سد حاجات العصر ومقتضياته .

ولجنة الأصول من أهم لجان الجمع ، بدأت تعمل في نشاط منذ دور الانعقاد الأول ، وأنتجت بعد بحث وتمحيص ، واطرد إنتاجها دون انقطاع . واستطعنا عام

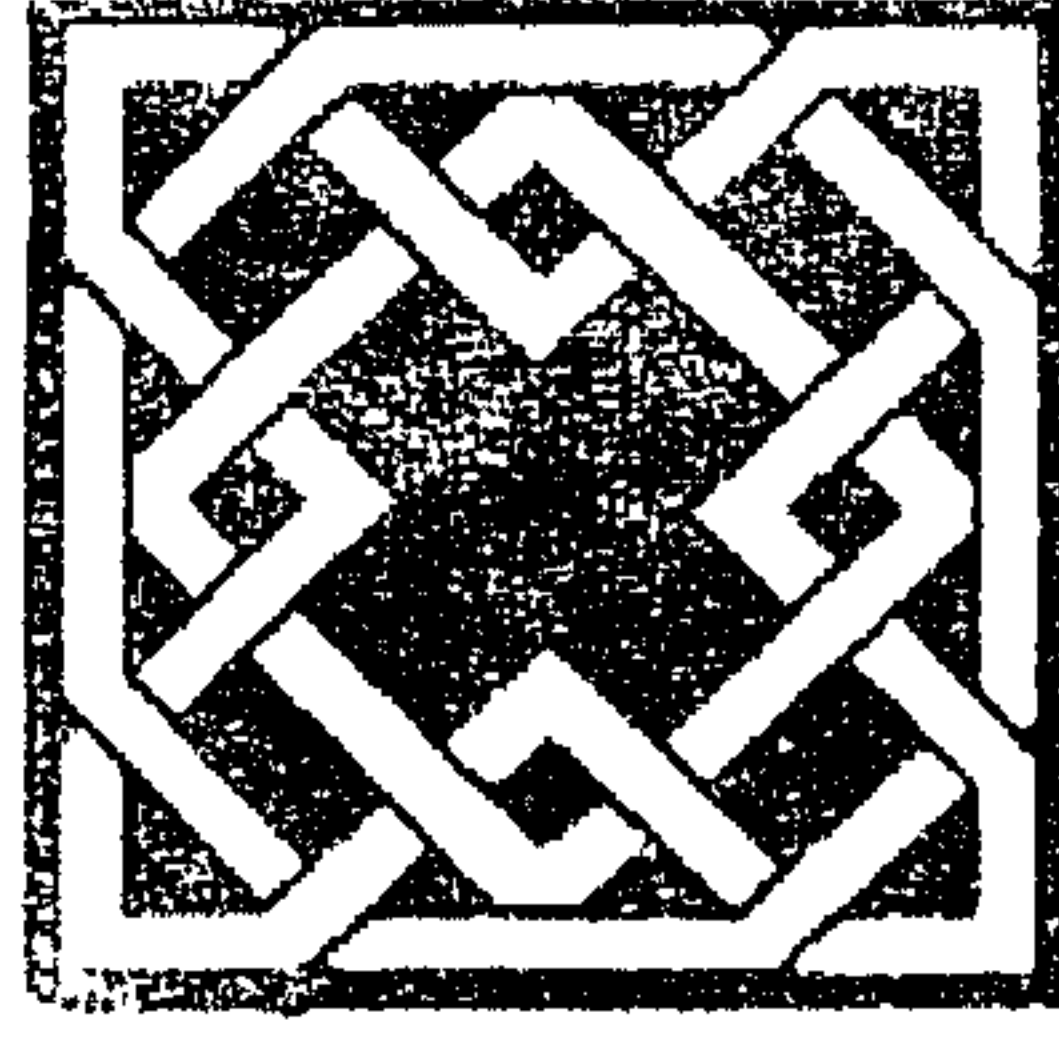
ثلاث وستين أن تخرج عمار هذا الإنتاج طوال ثلاثين سنة ، من الدورة الأولى إلى الدورة الثامنة والعشرين . أخرجناه في مجلد بعنوان : « مجموعة القرارات العلمية » ، ويقع في أربعة أبواب : أولها « في أقيسة اللغة وأوضاعها العامة » ، وثانيها « في الترجمة والتعريب وكتابة الاعلام » ، وثالثها « في وضع المعجمات والمصطلحات » ، ورابعها « في تيسير النحو والصرف والكتابة العربية » ، ويشتمل على ما يزيد عن ٢٠٠ قرار .

والتطوير في شد ومد دائماً بين تيارين متعارضين : تيار التيسير والتجديد ، وتيار الجمود والمحافظة ، وربما طغى أحدهما على الآخر . وللمجمعين حوارهم وجدلهم ، وقد تنزع مناقشتهم أحياناً منزعاً نظرياً ، وتسمى عن قصد أكاديمية ، فننسى الملاءمة بين الماضي والحاضر وتعجز عن سد الحاجة ، وتبطل بالنهوض المنشود . عاش زكى المهندس ١٥ سنة أو يزيد رئيساً للجنة الأصول في هذا الجو وتحت ضغط هذا التقابل ، وقد واجهه في حضور بديهية وسرعة خاطر ، في مهادنة ومسألة ، في صبر وجلد نادرين . وكثيراً ما امتد بحث الموضوع الواحد في هذه اللجنة شهراً أو شهرين ، تقدم فيها البحوث تلو البحوث ، وتثار وجهات النظر المختلفة ، فكان المخاض عسيراً والوصول

إلى قرارات غير يسير : ومع هذا استطاعت
أن تخرج في هذه المدة مجلدين متلاحقين
« في أصول اللغة » ظهر أولها عام ٦٩ ،
وثانيهما عام ٧٥ ويشتملان على أعمال ١٤
دورة من دورات المجمع ، وفيهما ما يكشف
عما بذل في سبيلهما من جهد صادق وعمل
دائب ، أشرف عليه زكى المهندس ورعاه .
فيها عود على بدء ، وتدارك لبعض ما فات ،

أو تيسير وتجديد في أقيسة اللغة وأوضاعها ،
وفي بعض الأحكام النحوية والصرفية ،
وفي بعض الألفاظ والأساليب العربية والمعربة ؛
رحم الله زكى المهندس بين العاملين
الأبرار ، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ،
ورحمه الله بين المخلصين الأولياء ، والسلام
عليكم ورحمة الله .

ابراهيم مذكور
رئيس المجمع



●● كلمة الدكتور محمد مهدى علام

أمراً شبه مقرر ، وفقاً لما كان عليه نظام البعثات يومئذ فى اختيار أوائل الحريجين عقب تخرجهم .

ولم يكن هذا أول موقف ود وصداقة وأبوة له ، بل سبق ذلك عدة مواقف ربطت بينى وبينه منذ ألقى علينا أول درس فى التربية وعلم النفس ، فقد استمال قلوبنا جميعاً ، نحن الطلاب يومئذ ، شاب وضىء الحيا ، أنيق الملبس ، نشيط الحركة ، تتابعه نظرات الطلاب وزملائه الأساتذة الذين كانوا يفوقونه سناً ، وكان من بينهم عدد من أساتذته الذين تلقى عليهم العلم قبل سفره إلى إنجلترا .

ومن أوثق المواقف التى ربطت بينى وبينه موقفه من حركة الطلبة إبان ثورة ١٩١٩ التى كان لطلبة دار العلوم دور رائد فيها . فقد قاد الحركة فى مصر لجنة المدارس العليا ، وكان لكل مدرسة مندوب يمثلها فى تلك اللجنة التى كانت على اتصال سرى بالسكرتير العام للجنة الوفد المركزية المرحوم عبدالرحمن بك فهمى ، فى بيته الذى ما زال قائماً فى شارع قصر العيني تحتله دار الأدباء .

فى أعرق أحياء القاهرة المعزية ، منذ تسع وثمانين سنة ، ولد فقيدنا العزيز زكى المهندس لأب من أوساط وجهاء ذلك الحى ، كان يزاول العمل الهندسى فى تلك المنطقة .

وحدث أن كان لذلك الوالد صلة معرفة — إن لم تكن صداقة — بوالدى . ولم أعرف عن هذه الصلة شيئاً حتى كنت على وشك التخرج من دار العلوم .

فقد حدث أننى كنت فى فترة التمرين على التدريس بمدرسة العقادين ، وكان يزورنى للتفتيش المرحوم الأستاذ زكى المهندس . فلاحظ ما كنت عليه من اكتئاب سببه أننى كنت أعد نفسى بعد بضعة أسابيع للقيام بعبء الأسرة بعد وفاة أكبر إخوتى وعائل أسرتى ، فى حين أن أملى وأمل أساتذة المدرسة كان مرتبطاً بسفرى فى البعثة . وبعد انتهاء العمل يومئذ فى المدرسة صحبني أستاذى إلى بيتنا فى حارة الروم ، وقص على صلة والده بوالدى ، وتعهد بأن يتفق مع أخ أكبر لى أن ينهض بعبء الأسرة ، حتى لا يحال بينى وبين بعثتى التى كانت

وفي المرحلة الأولى التي كنا نعمل فيها
علانية . بالقصائد النارية، والخطب الحماسية،
كان المرحوم زكي المهندس يلأزمنا في
المساجد والكنائس والجمعيات، ويصحبنا أحياناً
الأب سرجيوس .

وإذا كنا — نحن طلاب ذلك العهد —
قد مقتنا واحتقرنا أستاذاً كانت نصيحته
لنا يوم حطمتنا الأبواب في ٩ من مارس ١٩١٩
وكانت الأبواب تغلق علينا حتى منتصف
الرابعة مساءً — كانت نصيحته لنا : « كن
في الفتنة ذنباً ولا تكن فيها رأساً » ، فإن
تقدم زكي المهندس الأستاذ الشاب المتوثب
ليدعم إرادتنا ، ويصحب خطواتنا ، قد
عكس هذه النصيحة ، فكنا في الثورة رأساً
لا ذنباً .

وقد كنا نحتاج إلى تحرير بعض البيانات
بالإنجليزية والفرنسية ، وكان لنا اثنان من
أساتذتنا يقومان بذلك سرا دون أن يعلم بهما
إلا القليل من يوثق بهم : وهما زكي المهندس
للإنجليزية ، وإسماعيل بك رأفت للفرنسية .

وأستسمحكم في الاسترسال في ذكرى
الفقيد في موقف آخر له : ففي يوم من أيام
مايو سنة ١٩٢١ كنت أؤدي الامتحان
التحريري ، ورأيت من شرفة القاعة التي
كنت فيها ثلة من ضباط الشرطة يدخلون
متجهين إلى حجرة رئيس الامتحان . ولم يكن
ندى أقل شك في تحديد شخصية من حضروا

للقبض عليه . وأصابني رعاف، ضيقاً بأن
يحدث هذا في أثناء الامتحان الذي لم يكن له
دور ثان ، بل لم يكن يسمح لطالب راسب
أن يعيد ، بل يفصل ، تبعاً للأئحة الدنلوبية
في ذلك العهد . .

ورأيت من الشجاعة أن أضع قلمي لأذهب
إلى حجرة رئيس الامتحان لأسلم نفسي ،
ولكن يدا رفيقة كانت تضع منديلاً تحت
أنفي تتلقى فيه الدم ، وبصوت رقيق تقول لي :
أنك لم تستدع بعد ، فاجلس وأتم إجابتك ،
وسأستمهل الداعين حتى تفرغ من إجابتك . .

كان هذا هو المرحوم زكي المهندس الذي
شاء القدر أن يكون هو المراقب في حجرتنا
في ذلك اليوم ، وليس مما أنا بصددده أن
أسترسل في سرد ما تم بعد ذلك في حجرة
المرحوم أسعد بك برادة رئيس الامتحان ،
واتصاله برسل باشا حاكمدار العاصمة ،
ومصاحبة ضباط الشرطة لي لتفتيش منزلي .

ومما لا أزال أذكره — ويذكره بعض
الأعضاء من جيلي — أنه في أول الثورة ،
عقب اعتقال سعد وصحبه ونفيهم إلى مالطة ،
تألفت لجنة عليا لموظفي الحكومة ، وقررت
هذه اللجنة أن يضرب جميع الموظفين احتجاجاً
على نفي سعد وصحبه . ولم يكن الإنجليز
يتصورون أن موظفي الحكومة يضربون ،
وهم — في تقديرهم — أهل الطاعة ، والحرص
على مرتباتهم التي ما كانت تكفيهم إلا بشق
الأنفوس .

ولكن المستحيل تحقق ، وأضرب جميع الموظفين في جميع أنحاء الدولة — إلا ثلاثة ، كان أحدهم ناظر دار العلوم . وكانت فضيحة لم نستطع أن نحتملها نحن طلبة هذا المعهد الذى كانت له قيادة وريادة في تلك الثورة — فقررنا أن نلقن هذا الناظر درسا في الوطنية ، بأن يتلقى ضربة تؤدبه وهو في طريقة في الصباح إلى المدرسة .

وكانت هناك دراسة للطريق التى يسلكها ، واختيار للنقطة التى يهاجم فيها حيث تكون خالية من المارة . وعهد إلى أحد الطلاب أن يصطنع السؤال عن الطريق من الشرطى الذى في أول الطريق ، وإلى طالب آخر أن يقوم بنفس العمل مع الشرطى الذى في الطرف الآخر للطريق حتى تتم عملية التأديب .

ولكن بقى أن نختار المنفذين للتأديب . وكانت كل هذه المناقشات والترتيبات تدور في جلسات سرية يحضرها أستاذنا زكى المهندس . وقد وافق على كل خطوة إلا أن يقوم أحدها بالتأديب . وتعهد أن يستأجر شخصين من « فتوات » الدراسة للقيام بهذا العمل ، مع تفهيمهما السبب الذى من أجله نريد أن نوذب ذلك الرجل . وكانت الروح الوطنية مشتعلة في صدور الناس على اختلاف طبقاتهم ، فلما علم هذان الشخصان بطبيعة الوضع ، رفضا أخذ الأجر الذى كان مقدما

لهما ، كما رفضا أن يستوليا على الساعة الذهبية وسلسلتها التى كانت تتدلى من جيب ذلك المسكين ، قائلين : عيب ، نحن وطنيون مثلكم ، لا نُؤجّر ولا نسرق .

وبعد أن تم التأديب تحت أعيننا ، إذ كنا نشاهد ذلك من نافذة في بيت يطل على مكان الحادث ذهب الرجل حاسر الرأس إلى مكتبه ثم إلى بيته ، ثم استقال .

وإذا كان لى بعد أكثر من نصف قرن ، أن أعيد النظر في ذلك الحدث فإننى أقرر إحقاقا للحق أن ذلك الرجل لم يكن خائنا ، بل كان أسيرا للنظام الفرنسى الذى كان سائدا في القرن التاسع عشر ، وقد تربى عليه في فرنسا وكان وأميننا على ما كان يسميه الضبط والربط . فكان يعد الإضراب خيانة لأمانة الوظيفة التى في عنقه . فليغفر له الله سوء تقديره وليصفح الله عن كل تجاوز صدر ممن اشتركوا بالقول أو بالفعل في ذلك العمل . ولكننا رفعنا رؤسنا أمام زملائنا الطلبة بعد فعلتنا هذه .

ولقد ظل زكى المهندس مثلا نحتديه . وظلت صلته بى عند تخرجى وسفرى إلى إنجلترا . وقد وجدت له صورة بالقبة وقد أرسلها إلى أهله ، وكتب تحتها بيتين من الشعر كان قد حاكى فيهما زميلا أقدم هو المرحوم على الجارم .

كان على الجارم قد كتب تحت صورته ،
وقد خلع العمامة ولبس القبعة يقول :

لبست الآن قبعة بعيدا
عن الأوطان معتاد الشجون

فإن هي غيرت شكلي فإني
(متى أضع العمامة تعرفوني)

وخذنا حذوه زكى المهندس عندما سافر إلى
إنجلترا فأرسل صورته وتحتها البيتان الآتيان :

فإن تك غيرت مني الليالي
وحال البعد دونكم ودوني
فهذا رسم صاحبكم ولكن
(متى أضع العمامة تعرفوني)

وقفيت على آثارها فأرسلت صورتي
وعليها :

رأبتم صورتي فجھلتمونى
وكدتم ، لحظةً ، أن تنكرونى

أنا مهدي بن سلام ولكن
(متى أضع العمامة تعرفوني)

لقد تحدث الدكتور الرئيس عن الفقيه في
المجمع ، وسمحت لنفسى أن اتحدث عنه
حديث الذكريات ، فلأقل كلمة - مجرد
كلمة - لا تكاد تفيده حقه فيما بقى لي من الزمن :

لقد تخرج الفقيه من دار العلوم سنة
١٩١٠ في فوج من النابهين الذين عرفت
لهم اللغة والأدب والثقافة آثارهم . فقد كان
عظيما بين عظماء ، نابها بين نابهين .

ولم يكن تفوقه على من تسهل منافستهم :
كان منهم إبراهيم مصطفى الأستاذ بآداب
القاهرة ، وآداب الإسكندرية ، ودار العلوم ،
وعميدها ، وعضو هذا المجمع .

وشرف الدين خطاب رفيقه في البعثة
وزميله في التدريس بدار العلوم وفي التفتيش .
وعبد المجيد الشافعي العالم المؤلف والأستاذ
في دار العلوم .

والدكتور على العناني الأستاذ بالجامعة
المصرية في عهدها الأهلي والحكومي ، وزميل
الفقيه في التدريس بدار العلوم وفي التفتيش .
ومحمود السيد عبد اللطيف صاحب أول
سفارة علمية إلى سنغافورة ، في وقت كان
الانتقال فيه إلى طنطا يعد هجرة .

أوفد الفقيه إلى إنجلترا فدرس وتخرج من
جامعة ردينج حاصلا على دبلوم في التربية
وعلم النفس .

ولنا هنا وقفة للتاريخ قبل أن يأقن النسيان
على ما بقى منها في الأذهان .

لقد قامت دراسة التربية وعلم النفس في
مصر على أيدي رواد من خريجي دار العلوم .
كانوا يوفدون في بعثات معظمها في إنجلترا .
ولم يكن هناك منذ أول القرن الحالى من يحمل
هذه الأمانة العلمية سواهم . وأستطيع أن
أقسمهم إلى أفواج ثلاثة :

فكان الرعيل الأول ممثلا في حسن توفيق
العدل (الذى درس في ألمانيا) ومحمد شريف
سليم (الذى درس في فرنسا) .

وجاء من بعدهم فوج تصدره على الجارم
ومصطفى أمين وأحمد عبده خير الدين ؟

وظلت كتب هؤلاء تدرس حتى جاء
فوج زكى المهندس وعبد الحميد حسن ومحمد
على مصطفى (ولولا الحياء لذكرت معهم من
ساهم معهم فى التدريس والتأليف) ؟

ومن الإنصاف أن أقرر أنه ظهر مع
هذا الفوج الثالث اثنان من خريجي مدرسة
المعلمين العليا كان لهما فضل كبير فى تطوير
التربية وعلم النفس ، هما المرحوم إسماعيل
القباني والأستاذ أمين مرسى قنديل مد الله فى
عمره . ولولا انصراف الزميل محمد خلف
الله أحمد إلى الدراسات الأدبية (مع
استغلالها بالدراسات النفسية) لكان الرائد
الأول للفوج الجديد الذى انتقل إليه علم النفس
على يد خريجي معهد التربية بعد إنشائه ؟

بقى أن أقول كلمة عن تلك الدبلومات التى
كان يحصل عليها المصريون عامة وخريجو
دار العلوم خاصة ، من جامعات إنجلترا :

لقد كانت الدراسة للحصول على هذه
الدبلومات دراسة جادة عميقة ، تستهدف
التثقيف العلمى لمهنة التدريس ، وقد نهل منها
هؤلاء الدارسون ، ونقلوا ما ثقفوا إلى أبناء
وطنهم . ولكن السؤال الذى كان يراودهم
دائما هو : لماذا لا يسمح لهم بالحصول على
درجات عليا غير الدبلومات ؟

وهذا هو السبب : كانت سياسة دنلوب
والإنجليز عامة هى أن لا يحصل المصريون

على درجات جامعية أعلى مما كان يحصل عليه
الموظفون البريطانيون فى مصر ، والذين كان
لابسد أن يكونوا رؤساء هؤلاء المصريين بعد
عودتهم من بعثاتهم . لم يكن منطقهم يسمح
أن يكون المرءوس حاصلا على مؤهل أعلى
من مؤهل رئيسه ؟

وأعجب ما فى الأمر أنه بعد أن أزيح
الكابوس البريطانى عن الحكومة ، ظلت هذه
السياسة حقة ، إما بحكم القصور الذاتى ،
ولما لأن الرؤساء الذين حلوا محل الإنجليز ،
كانوا من ذلك الفريق الذى لم يكن قد سمح
له بالحصول على الدرجات الجامعية العالية ،
فخشوا أن يأتى جيل بشهادات أعلى من شهاداتهم ؟
والحمد لله قد تغير الحال الآن .

درس فقيدنا بضع سنوات فى المدارس
النافورية قبل أن ينتقل إلى دار العلوم . وهذه
مأساة أخرى فى تاريخ التعليم فى مصر . فقد
شاءت السياسة الإنجليزية أن هؤلاء الرواد
الذين كانوا يختارون أوائل دفعهم فى التخرج ،
بعد أن يتخصصوا فى علوم التربية ، يعودون
إلى مصر ليدرسوا اللغة العربية سنوات تطول
أو تقصر ، فى مدارس ثانوية أو ابتدائية ،
أو مدارس التجارة والزراعة المتوسطة التى
عين فيها على الجارم عقب عودته من إنجلترا .
ثم ينقلون بعد هذه السنين لتدريس علوم
التربية فى دار العلوم ومدرسة المعلمين العليا .
وبعد ممارستهم لذلك عدة سنوات ينقلون
لتفتيش اللغة العربية بالوزارة .

ولقد كنا نتندر : بأن الحكومة ترسل الخريج إلى إنجلترا لينسى اللغة العربية ويتعلم مواد التربية وعلم النفس ، ثم يعود ليدرس اللغة العربية كي ينسى مواد تخصصه في إنجلترا ، فإذا تم ذلك نقل لتدريس ما نسي ، في المدارس العليا ، فإذا تم نسيانه للغة العربية نقل مفتشا لهذه اللغة .

وأيا كانت روح الفكاهة التي حركتها هذه الدورة العجيبة التي تكررت منذ أواخر القرن الماضي حتى الثلث الأول من هذا القرن ، فإن الذي حدث هو أن هؤلاء الأساتذة الأجلاء ساهموا في كل الميادين مساهمة مشكورة ، شهدت بها كتبهم وبحوثهم وتلاميذهم في المجالين .

بعد أن خلف زكى المهندس أثره الملموس في ميدان التربية وعلم النفس بدار العلوم ، نقل مفتشا بالوزارة ، وبقي عدة سنوات يوجه فئات المدرسين إلى أمثل الطرق التعليمية . ثم هفت نفسه مرة أخرى لمنصة الأستاذ فانتقل إلى معهده الذي نظمت فيه الدراسة على الأساس الجامعي ، فشغل كرسى التربية والفلسفة ، وظل يحتل هذا الكرسى حتى اختير وكيلا لكلية دار العلوم ثم عميدا لها سنة ١٩٤٥

وفي هذه الأثناء ضمت دار العلوم إلى جامعة القاهرة فأصبحت إحدى كلياتها . وقد ساهم الفقيد في تحويل نظامها المدرسى إلى

نظام جامعي ، وشغل كرسى النقد والبلاغة . (ألم أقل لكم إن هؤلاء الرواد تقلبوا في تخصصات عمقت معرفتهم ، ووسعت آفاقهم)

وظل عميدا حتى تقاعد في سنة ١٩٤٧ تقاعد ولكنه لم يقعد . وحين أنشأ المرحوم الإمام المراغى أقسام التخصص في الأزهر ، في شعب ، تدرس كل واحدة منها مجموعة متكاملة من المواد العلمية ، كان منها شعبة الأخلاق والتربية . وكان من حظى أن دعيت للتدريس فيها ، ثم تشرفت بأن ساهم بالتدريس فيها معى أستاذى زكى المهندس . وبقي يزاوول هذا العمل العلمى العظيم سنين عدة ، تخرج منها على يديه عشرات من أفاضل شيوخ الأزهر الذين كانوا روادا للنهضة الأزهرية . وأنا أذكر أن عميدا لكلية أصول الدين قابلى منذ بضع سنوات ، وكنت أعرف له فضله وعلمه ، فلما رآنى أبالغ فى حفاوتى به قال لى : إنك أستاذى أنت وزكى المهندس . فقلت له : أنا درست لك ، ولست أستاذك ، إنما أستاذك وأستاذى هو زكى المهندس .

وفي هذه الرحلة الطويلة من سنة عودته من إنجلترا سنة ١٩١٤ إلى سنة تقاعده عام ١٩٤٧ كان رصيده عشرات الآلاف من الطلاب والمعلمين ، وعدة آلاف من صفحات التأليف والترجمة ، وعدة مئات من المحاضرات والندوات .

ومن أهم كتبه :

١ - أخلاق الفن (بالاشتراك مع زميل له)

٢ - محاضرات في التربية

٣ - إلى المجد (همسات في أذن الشباب)

٤ - رجل القرن العشرين

٥ - احلام اليقظة

٦ - المراهقة

٧ - رسالة المعلم

٨ - النحو المصور

ولهذا الكتاب الأخير ، بأجزائه الثلاثة ، دلالة خاصة على نزعة الفقيه للتجديد . فقد كان في تحريكه عدسة المصور ؛ ليشرح قواعد النحو أقوى حجة تفهم أولئك الذين طالما تقولوا على مدرسي اللغة بأنهم يعيشون في معركة زيد وعمر .

والنظرة الفاحصة لهذه المؤلفات تدل على أنها تدور حول تربية الشباب ، فإن زكى المهندس لم يكن عمل الحديث عن توجيه الشباب ، حتى أن أحاديثه في الإذاعة - وهذا ضرب آخر من ضروب نشاطه - لم تنس العنصر البشرى الذى كان يعد نفسه مسئولاً عن ثقافته .

لقد علم داخل الفصول الدراسية ، وحاضر في مدرجات الجامعة ، وخطب من منصات الجمعيات ، وأذاع على متن الاثير ، وكتب آراءه في الكتب والصحف والمجلات . إن سنتين عاماً إلا بضعة أشهر تتمثل امامى

(١) الدكتور أحمد عمار عضو المجمع .

الآن وأنا أحاول أن أحيى صوراً عزيزة للأستاذية والصدّاقة ، والزمالة في دار العلوم مدة ، وفي التفتيش حقبة ، ثم في هذا المجمع الموقر إلى أن فرق الموت بيننا .

سينقضى وقت طويل - طويل جداً - قبل أن تجد مصر من أبنائها شخصية تجمع كل هذه السمات ، وتختلف كل هذه الآثار . أستودع أستاذاً وصديقاً وزميلاً ملأ صوته لقاعة المجمع علماً وثقافة وعفة لفظ . وأقدم أخلص الغراء لأسرته العائلية ، ولأسرته العلمية ، فكلنا فيه يعزى ويعزى .

أرجو أن يعفينا القدر من مثل هذا الموقف الحزين فترة نلتقط فيها أنفاسنا من شبح الموت ، الذى يحيم علينا ، ويأبى إلا أن يفجعنا كل غام في عزيز من زملائنا .

أتذكر يا عمار (١) : ما قلته لك منذ نحو عشرة أعوام :

تأزمت الأمور فلست تلقى
خطيباً مستعداً للثناء
فهلاً كف عزرائيل عنا
أيّد القدر المحرك للفناء
أقيموا دونّه سداً وأخفوا .
من « الأرشيف » تاريخ الولاد
أريحونا ولو عاماً لبقى
لنا صفبو الحياة بلا بكاء

أتمنى ألا أقف هذا الموقف مرة أخرى .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
المعادى ١٨ من ذى القعدة ١٣٩٦
١٠ من نوفمبر ١٩٧٦

مهدى علام
أمين المجمع

● كلمة الشعر للدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش

شُيِّعَتْ بِالْآيَاتِ وَالْأَنْثَاتِ
يَتَارِكُ الدُّنْيَا إِلَى الْجَنَّاتِ
صَرَفَ الْكَلَامَ بِكَى عَلَيْكَ وَنَحْوَهُ
لَمَّا بَغَى صَرَفَ الزَّمَانَ الْعَاقِي
كَأْسُ تَدُورٍ عَلَى الشَّفَاهِ بِسْمَتِهَا
وَرَحَى تَدُورٍ فَتَحْصِدُ الْهَامَاتِ
وَالْمَوْتَ حَقٌّ لَا مَحَالَةَ لِئِنَّمَا
تَجْرَى الْعَيُونَ بِصَحْبَةِ الْآهَاتِ
إِنَّ الْحَيَاةَ قَصِيرَهَا وَطَوِيلَهَا
سَيَّانٌ عِنْدَ مَقْوُوضِ اللَّذَاتِ
وَالْعَمْرُ مَهْمَا طَالَ يَنْقُصُ دَائِمًا
وَالْقَلْبُ يَدْنِي الْمَوْتَ بِالسَّدَقَاتِ
لَيْسَ الَّذِي قَدْ فَاتَ عَمْرُكَ لِئِنَّمَا
مَا لَمْ يَفْتَ مِنْهُ إِلَى الْمِلَقَاتِ
وَالْمَهْدِ مِثْلُ النُّعْشِ يَحْمِلُ مَيِّتًا
ضَمَّتْهُ أَكْفَانٌ مَعَ اللَّفَاتِ
يَا عَالَمُ الْفَصْحَى لِبَعْدِكَ لَوْعَةٌ
إِنَّ الْفِرَاقَ لِأَكْبَرَ اللَّسَوَعَاتِ
أَنْتَ الْمَعْلَمُ وَالْأَدِيبُ كِلَاهُمَا
أُسْتَاذُ جِيلٍ قَدْ مَضَى وَالْآتِ
رَغْمَ التَّطَوُّرِ مَا فَتَحَتْ مَحَافِظُنَا
مُسْتَمْسِكًا بِالزُّبَى وَالْعَادَاتِ
مِمَّا يَدُلُّ عَلَى اقْتِنَاعِكَ أَوَّلًا
وَشَجَاعَةٍ فِي مَعْرِضِ الطَّاقَاتِ
صَفَّ لِي الْحِمَامِ وَقَدْ عَهَدْتُكَ صَادِقًا
هَلْ وَقَعَهُ أَقْسَى مِنَ الْعِلَاقَاتِ ؟
أَوْ أَنَّهُ أَدْنَى مِنَ الْخُوفِ الَّذِي
يَنْتَابُ مَنْ يَسْعَى إِلَى الْأَفْلَاقَاتِ !
هَلْ مِنْ يَمُوتُ لِفُورِهِ خَيْرٌ لَهُ
مَنْ أَنْ يَمُوتَ عَلَى مَدَى سَاعَاتِ ؟
أَوْ أَنْ لَحْظَةً مَوْتَهُ أَقْسَى لَهُ
مِمَّا مَضَى مِنْ قَبْلِ مَنْ وَيَلَاتِ !
هَلْ مَوْتُهُ الْمَطْعُونِ أَكْبَرُ وَطَآءَةٍ
مِنْ مَوْتِهِ الْمَشْنُوقِ بِالسَّاحَاتِ ؟
أَوْ مَوْتُهُ الْمُسَمُومِ وَالْمَلْدُوغِ
بِالْحَيَّاتِ وَالْمَخْنُوقِ بِالْغَازَاتِ !
هَلْ كُلُّهَا مَوْتَ كَمَوْتِ مَرِيضِنَا
أَوْ حَتْفٍ مِنْ مَاتُوا مِنَ السَّكَنَاتِ ؟
أَوْ مِنْ يَمُوتُ بِطَلْقَةٍ مِنْ كَفِّهِ
أَدْنَى مِنْ الْهَرُوقِ بِالشَّعْلَاتِ !

حار الفلاسفة الأوائل كلهم	يسارب كثر سيئات ذنوبنا
بين الحياة وعالم الأموات	واغفر لنا ماكان من زلات
حتى أتنا الأنبياء وبلغوا	لا فضل إلا بالتقى بين الورى
يوم القيامة لا محالة آت	بالعدل والأعمال بالنيات
ياخالق الدنيا وجودك ثابت	والسابقون الفائزون مقامهم
بالغيب والأرزاق والإنبات	دار الخلود وروضة الجنات
والروح من أمر الإله وعلمه	أبراهيم أدهم الدمرداش
ما أوتى الإنسان من قدرات	عضو المجمع

كلمة الأسرة

لشقيق الفقيد الأستاذ كامل المهندس

سيدى الجليل رئيس مجمع اللغة العربية
الموقر-

سادتى الأجلاء أعضاء المجمع

أقدم لكم بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن
أفراد أسرتى أبجل الشكر على ما قتم به من
إحياء ذكرى شقيقى المرحوم الأستاذ زكى المهندس
نائب رئيس المجمع . لقد كان الفقيد أستاذاً
وأخاً وأباً لى ، رعانى طفلاً ، وهو لا يكبرنى
بأكثر من عشر سنوات ، ورعانى طالباً
بالأزهر الشريف ومدرسة دار العلوم ثم
طالباً بجامعة لندن ، وأخيراً غمرنى بعطفه وأنا
عضو هيئة التدريس بكلية دار العلوم . فأنا
مدين للفقيد بكل ما نلت من خير فى جميع
مراحل حياتى .

وليس بين أفراد أسرتى من لم يشمله بكامل
عنايته حقبة طويلة ، حتى تخرج منهم الكثير من
الأساتذة وقادة الجيش والأطباء والمهندسين
وغيرهم ، وبينهم من يشغل الآن مناصب
رفيعة .

هذا إلى ألوف الطلاب الذين تعهدهم
بالتربية والتدريب من أبناء وزارة المعارف
(وزارة التعليم الآن) ، ومدرسة دار العلوم
(كلية دار العلوم الآن) ، وكلية اللغة
العربية من الجامعة الأزهرية ، ومنهم من

أسهم بنصيب وافر فى النهضة العلمية الحديثة
بمصر الحديثة بمصر والبلاد العربية الأخرى :

وقضلا عن الأحاديث الدينية والاجتماعية
المتعة التى كان يحرص العدد العديك من
الجمهور على الاستماع إليها فى برامج الإذاعة
كل صباح وحدث أن أرسلتنى وزارة المعارف ،
ومعى صديقى المرحوم الدكتور فؤاد حسنين
الأستاذ باداب القاهرة ، إلى دير سانت كاترين
بطور سيناء لفحص المخطوطات السامية وخاصة
العربية هناك . وأسعدنا الحظ أن نذهب
بصحبة ثلاثة من أئمة القانون والأدب
والتاريخ المرحوم الدكتور عبد الرزاق أحمد
السنهورى (وكيل وزارة المعارف وقتئذ) ،
والمرحوم الأستاذ أحمد أمين والمرحوم
الأستاذ عبد الحميد العبادى .

ومازالت إلى الآن أذكر ما دار من حوار
بين الأساتذة الثلاثة حول دار العلوم وقد
كانت تتنازعها الأهواء فى ذلك الوقت
ويتردد أمرها بين الإلغاء والإبقاء . فاجتمع
رأيهم على وجوب انضمامها لجامعة القاهرة
صيانة لها وإبقاء عليها .

وشاء القدر أن تنضم دار العلوم فيما بعد
لجامعة القاهرة على يد فقيدنا طيب الذكر
الأستاذ زكى المهندس ، وأن يكون هو

آخر ناظر لها في وزارة المعارف وأول عمدائها
في عهدها الجامعي ، وأن تظل دار العلوم
تؤدي رسالتها كسالف عهدها في خدمة
الفصحى ونشرها ؟

وإن أنس لا أنس ما أسهم به الفقيد زهاء
ثلاثين عاما في المنجزات العظيمة لمجمعكم
الموقر ، تلك الأعوام التي كانت -
على ما ذكر لي مرارا- أسعد أيام حياته برغم
ما تخللها من متاعب الشيخوخة ؟

فليس عجيباً إذن أن يقوم مجمعكم المبجل
بإحياء ذكره ، وقد قضى ما يقرب من ثلث
حياته في خدمته ، فإنكم أولو الوفاء والفضل
كما أنكم أساطين العلم وأعلام الفن والأدب .
ولقد كان لما أنجزتموه من المؤلفات الضخمة
في مصطلحات العلوم والفنون ، وما قتم به
من بحوث لغوية أصيلة قيمة وما نشر نجوه
من معجمات أبلغ الأثر في نمو لغتنا العربية
والاحتفاظ بها سليمة مزدهرة .

وإنه ليطيب لي ويثلج صدري أن ألمح
بينكم إخواني إلى طالما نعمت برويتهم وسعدت

بصحبتهم ، ثم فرقت بيننا ظروف الحياة كما
تفرق بين الإخوة الأشقاء الأحياء ؟

وليس أدعى لهدوء نفسي وراحة بالي من أن
أستمع - فيما استمعت إليه من دور خطباتكم
وشعرائكم - إلى صديق الصبا والشباب الأديب
الكبير الدكتور محمد مهدي علام حفظه الله ؟

ولقد كان بين أفراد أسرتي من هو
أقدر مني على الوفاء بشكركم والرد على
كلماتكم النبيلة الوفية ، لولا أن كبر سني كان
شفيعا لي في أن أنال هذا الشرف العظيم .

سيدى الجليل رئيس المجمع .

سادتي الأجلاء أعضاء المجمع .

أطال الله بقاءكم ممتعين بأتم صحة ورافعين
أعلام اللغة العربية - لغة القرآن والحديث -
خفاقة في كل مكان ، وتغمد المولى - جل
شأنه - فقيدنا الحبيب بواسع رحمته .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كامل المهندس

●● كلمة الختام للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

سيداتي ، سادتي :

في ختام الجلسة أتقدم بخالص الشكر لكل
الذين تفضلوا بالحضور إلى هذا المكان
ومشاركة المجمع حفل تأبين فقیده الكبير شيخ

الجميعين الأستاذ زكي المهندس رحمه الله
رحمة واسعة ، وأسأله تعالى أن يوسع له في
جنته ورضوانه ؟

ورفعت الجلسة ، وشكرا لكم .

زكى المهندس امام الاشكالية العظمى للدكتور محمد عزيز الحبابى

وجدانى ومجتمعى . مع الموت ، كذلك ، نحن فى صراع دائم ، إلا ان الموت لا يجابهنا علانية ، على قارعة الوجود . فغالبا ما يفضل المراوغة والبغته . آثاره ملموسة ، وبلا وضوح ، عينية ، وفى أوج الغموض ، تحاصرنا فى كل مكان وكل آن ، ولكن الموت يبقى هو هو ، على مر الأزمان وتغير الأمكنة ، دون مكان أو زمان . إنه العيب الثقيل الذى لا وزن له ولا أبعاد . الموت لا يموت . يزرع الفناء ولا يفنى . يقوم بعملياته الصغرى والكبرى وهو لا يلمس ولا يرى : إنه التناقض المطلق : العدم للوجود ، الوجود المتعدم . بوجوده تنعدم الموجودات . ينساب فى كل الكائنات ، وهو بلا كينوننة .

قليل من يقدرون على مواجهة تحدى الموت السافر والمقنع . وما أخالنى مبالغا ان عددت من تلك القلة . فقيدنا . أتذكر ابتساماته الهازئة ، وعصاه يهش بها على الأشباح ، وقامته المنتظمة عموديا التى عودها على أن لا تركع أمام جبروت السنين . يفضل السير على الأقدام واثقا فى ركبته ، حامدا فى حجة الحياة . فلا يصارع الموت إلا من يتقبل توضحيات ، طوال الحياة . كانت النكته من أسلحة فقيدنا ، فى الصراع الطويل ،

منذ أن بدأ الإنسان يعي أوضاعه ، حاصرته قضية الوجود والعدم ، فأصبحت الإشكالية الأولى فى كل الفلسفات هى أن نتأمل فى الوجود والوجود ، وفى العدم والمعدم . بيد أننا لا نكاد نعثر على نسق فلسفى ينطلق من مفهوم الموت .

فما الموت ؟

بمجرد ما توصلت ببطاقة مجمع اللغة العربية بالقاهرة تنعنى إلى أمتنا الفقيد الحبيب ، حتى فاجأنى ذلك السؤال ، لاحتفى . إنه لسؤال مزعج ، نظرحه ، بل يطرح نفسه علينا . ويشتد إلحاحه بقدر ما نكون من معزة أو تقدير للهالك ، وأستاذنا الجليل زكى المهندس عزيز للطفه الجم ، ولصدق صداقته ، وخفة روحه ولخلق الرقيق ، وهو أيضا محاط بالتقدير ، لمكانته فى ميادين العلم والتعليم ، والإخلاص فى خدمة اللغة العربية .

ها هو السؤال يعاودنى : ما الموت ؟ إنه الحاضر الغائب . كان منذ البداية يمرح فى قارات العدم ، ولا نتصور له نهاية . إننا نحيا تجارب الوجود فى أى فعل يصدر عن وعينا . كما نعانى الوجود كل مرة يفنى فيها واحد من نتواجد معهم . إنها معاناة ذات لونين نحياها كتجارب أنطولوجية ونفسانية ، فى مظهرين ،

حقاً . إن النكتة لا تقضى على الموت ،
ولكنها تحمى من بلاء الخوف المزمع الذى
تزرعه المنية فى القلوب ، وتبهر به العقول
الحائرة . كان زكى المهندس يحسن النكتة ،
بها يتحدى الموت .

النكتة ضياء فى غياهب الليل البارد الخفيف
الذى لا يعرف نهاية ، ليل الحقيقة المرة وهى
تزرع الحيرة المطلقة ، وتسترق منا نور الهدوء
والاطمئنان .

* * *

غمرنى عزيزنا بلطفه عند أول مأدبة جمعتنى
وإياه ، جالسنا إلى نفس المائدة ، فتعاطفنا ،
وبقيت أعز بصدافته . حبت إليه أن يحكى
لجالسيه عن أجيال عرفها ، فإذا به لا ينقل عنها إلا
الجانب الخفيف ، وبخفة دم تتناسق مع
« آيس كريم » و « أم على » ، خصوصاً بعد
الجلسات الصباحية بمجمع اللغة العربية
بعروضها ومناقشاتها الدسمة :

امتاز المرحوم بقدرته على النكتة ، وعلى
حسن صياغتها ، كما كان يحسن روايتها ،
فى الأوقات الملائمة ، فتوفرت فيه شروط
البلاغة والبيان . إن النكتة « البليغة » تسخر
من العبث ومن العابثين . كل النفوس مكبوتة من
جلاء شبح الموت المائل أبداً . فتأتى النكتة ،
تقصف الضجر وتفجر الكبت .
فنستعيد الأمل فننسى الكابوس المرعب ولو
إلى حين . ولعمري ، إذا كانت النكتة
البارعة ، هذا شأنها ، ألا يطبق عليها

« إن من البيان لسحرا » ؟ سحر النكتة
سلاح ونعمة لدى الطبائع الأثرية . وإن
فقيدنا لمن تلك الطينة .

نكتة كانت تأتى فى صفاء البراءة ، مرحة ،
متفائلة ، لا تخدش ولا تجرح .

* * *

ثم مرة أخرى : ما الموت ؟

لقد حمنا حوله دون أن نخط له حدوداً .
لو قدر للموت أن يتحدث عن نفسه لأكد
أنه هو نفسه لا يعرف تحديداً ولا حدوداً .
بل إنه ، فى حركاته الدائبة ، لا يجد أوقات
فراغ ليتساءل عن هويته . إنه . . هو . .
أى . . أى شىء ؟

كل إنسان يتأمل يموت وفى نفسه ازعاج
من ذلك « أى » . الموت لا يفسر : وإنما
نخافه ونخيف به ، إنه الزوبعة فوق رأسنا ،
أبد الآبدين . إنه حوار متصل بين المرء
ونفسه ، ولكنه حوار الصم البكم ، محاوره
بين المعنى واللامعنى ، المعقول واللامعقول .
العقلانية تتدخل فى المعقولات والأفعال
الإرادية ، فأنى لها أن تناقش الموت-العبث
الذى يأتى بلا ميعاد ، على غرة ، ودون
رغبة فيه ، وبغيب حيث ينتظر المترقبون ؟
العقل يتدخل فى شئونى عندما تأتى أفعال
منسجمة مع وعيى لها ، عندما أريدها محقة
أو مفروضة ، أما الموت فلا يخضع لإرادتى ؛
لن يستشيرنى عندما ستحل فعلته بى . فى

لحظات الموت ، يصبح الكوجيطو هو :
لم أعد قادراً على التفكير ، إذن أنا موجود
سلبياً ، جثة تعاني حينونة الانعدام . هناك
لحظة ممتازة ، يتعاقب فيها وجودى بعدمى ،
كل المتناقضات تتجسد ، فى لحظة ممتازة
تدخل فيها الإيجابيات والسلبيات حياً حاداً.
موتى ليس من عملى أنا ، ولكنه من شأنى ،
يهمنى مباشرة .

إن أعود فأقول : « أنا » ، ولا أخطب
غيرى بـ « أنت » ، لا تواصل ولا نداء :
أنتقل من « متكلم » إلى « متكلم عنه » ،
ويصير كلامى صوتاً صامتاً أبداً . أين منى
ذلك الجهاز الذى كان يرغب ويشتهى ،
كان يعقلن حياته ، ويريد ، ويتخيل ؟
لقد دخل فى خبر كان ! وماذا كان ؟
كان جهازاً موجهاً لأن يؤول إلى ما هو
الآن . عاد إلى أرض الميعاد إلى الأرض

الأم : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم » (قرآن كريم) :
كنت أملاً حيزاً من الفضاء وأمسيت بلا
مكان ، ذهبت مع الموت ! الموت نديم
لا يصحو وليس منا من يذوق سكرة
الموت أكثر من مرة فى « حياته » . سكرة
بلا خمر ، وكحول بلا عصير الموت .

أيها السادة

الحديث عن الموت لا يميته الموت ،
ولا يبلور معناه . فلن يعزينا فى فقدان
حبيبنا زكى المهندس إلا أن ندعو له بالرحمة ،
وبخير الجزاء على ما أسداه للغة العربية من
خدمات ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

محمد عزيز الحبابى

عضو المجمع المراسل من المغرب